مرتكزات تحليل الخطاب القرآني عند المفسرين

-سورة مريم نموذجا-

The foundations of the analysis of discourse in the interpreters – surat Maryam model -

الباحث: طيب نسالي

إشراف: د. سعيد بكير

قسم اللغة العربية -جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف(الجزائر)

nassalidoct@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2018/06/06 تاريخ القبول:2018/11/08 تاريخ النشر: 2018/12/01

الملخص:

تهدف هذه الدراسة الموسومة بِ: "مرتكزات تحليل الخطاب عند المفسرين -سورة مريم نموذجا-" إلى إبراز الجوانب اللسانية والعقلية والعقائدية التي اعتدها المفسّرون في تحليل الخطاب القرآني، في ضوء المدارس اللسانية والمناهج النقدية المعاصرة.

فما الآليات المعتمدة في تحليل الخطاب القرآني عند المفسرين، وما الدعامات المستند إليها في ذلك؟ لعلي أجيب عن هذه التساؤلات من خلال التطرق إلى: مقوّمات تحليل الخطاب ومنهجيته بين يدي المفسّر، وتوظيف المثيرات الأسلوبية والصور الفنية، واعتماد مؤشرات لسانية وغير لسانية خارج النص لتحديد المعنى الدقيق.

الكلمات المفتاحية: الدلالة، المعنى النحوي، السياق، المثيرات الأسلوبية، الصورة الفنية.

Abstract:

This study, which is called: "The foundations of the analysis of discourse in the interpreters –surat Maryam model -"aims at showing the linguistic, mental and ideological aspects on which the interpreters relied on the analysis of the Qur'anic discourse.

What linguistic and non-linguistic mechanisms on which interpreters relied on in analyzing the Qur'anic discourse?

To answer these questions by addressing: The components of speech analysis at the interpreter, Employing stylistic stimuli and artistic images, And the adoption of linguistic and non-linguistic indicators outside the text to determine the exact meaning.

Key words: significance; grammatical meaning; context; stylistic stimuli; image rhetorical.

تمهيد:

كانت غاية العلوم والدراسات التي قامت عقب الفترة التي شهدت نزول الوحي فهمَ معاني القرآن وتفسير آيه والوقوف عند إعجازه الماثل في الخطاب الإلهي، تقديسا لمكانته وحفظا له من عاديات الزمان، وإذا كانت علوم الشرع تنقسم إلى علوم آلة وعلوم غاية "فإن أعظم العلوم قدرا وأرفعها شرفا علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها، لا يليق تعاطيه والتصدّي للتكلم فيه إلاّ مَنْ بَرعَ في العلوم الدينية كلّها أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها"[1]، لذا

شدّدوا في شروط المتصدّي لعلم التفسير لأنّه يتعامل مع الخطاب الإلهي والنص المعجِز بتحليل مبانيه وكشف معانيه، ويبلّغها عن الله عزّ و جلّ.

ولعل أبرز الخصائص اللسانية والسّمات السيميائية نجدها في التفسير ذي الاتجاه البياني، "الذي يبيّن أسرار التركيب في التعبير القرآني، فهو جزء من التفسير العام تنصبّ فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير، والذكر والحذف ، واختيار لفظة على أخرى، وما إلى ذلك مما يتعلّق بأحوال التعبير"[2]، حيث أن المفسر البياني يغوص في المعاني، ويقف عند لطائفها ولا يكتفي بالمعاني الطافية على سطح النص، مستحضرا حينونة الخطاب الإلهي وتجدّده، وطبعًا هذا عمل شاق ما يجني ثماره إلاّ بعد إعمال فكر، وإدامة نظر في آيات النص المدروس، ورصد سياقاتها المختلفة وما اشتبه منها وما اتلف، ومراعاة الأنساق اللسانية المكثفة ودلالتها، وقد يحتاج إلى قرائن غير لسانية مِنْ خارج النص كمعرفة أسباب النزول، والبيئة التي نزل بها وغيرها من الملابسات التي تكتنف النص.

1- مقوّمات تحليل الخطاب بين يدي المفسّر:

لاشك أن خطر الزيغ عن المعنى المترتب عن تفسير القرآن لا يختلف عن اللحن في قراءته، فهما سيّان في التقوّل عليه ما لم يقل وتحميله ما لا يحتمل، ولذا وضع العلماء شروطا وضوابط وشدّدوا وثاقها على من أراد التصدي لتفسير كلام الله باجتهاده، متجاوزا حدّ المأثور، فاشترطوا من جملة ذلك التبحّر في مجموعة من العلوم، ولا تكفي المعرفة السطحية فيها، لكي يعصم نفسه من الوقوع في الزلل والقول على الله بغير علم، فيَضلّ ويُضل، وقد عدّها **السيوطي** في (الإتقان) خمسة عشر علمًا[3]، وذكر منها علم اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والبلاغة بفنونها الثلاث، وعلم القراءات، والفقه وأصوله، والنّاسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والأحاديث المبيّنة للمجمل والمبهم، وختمها بعلم الموهبة، ويقصد بها الملكة التي تحصل مع إدامة النظر والتدبر في كتاب الله، وزاد الشيخ رشيد رضا علم أحوال البشر (الأنثروبولوجيا)، والسيرة النبوية[4].

أراد بذلك علماء المسلمين إحاطة القرآن بسيّاج يمنع تسرب اللحن إليه، وكشف مدلولات النص المقدّس، بأوثق الآليات التي تضمن صدق المعنى ووفائه، وتمدّ قنوات تجاوب بين القارئ والخطاب القرآني، فتحصل لديه الهداية المنشودة.

2- منهجية تحليل الخطاب القرآني عند المفسر البياني:

التفسير البياني لون من ألوان التفسير بالرأي له أصوله عند القدامى، إلّا أنّ الجديد فيه منهجية عرضه وتحليله للموضوعات بما يناسب المناهج الدراسية الحديثة، يتعامل مع النص القرآني باعتباره قطعة أدبية معجزة، يبيّن المفسّر جوانب إعجازه البياني ونظمه الفريد، من خلال تأويل المكونات اللسانية والظواهر الأسلوبية الكامنة في الخطاب القرآني الذي "في كل شأن يتناوله يختار له أشرف المواد وأمسّها رحماً بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحقّ بها وهي أحقّ به"[5].

ومن هنا يتعيّن على المفسّر إحكام الآليات التي يستعين بها أمام نص غنّي بالتمثّلات الأسلوبية والأنساق اللسانية المخالفة لمعهود العرب في كلامها، فكانت من جملة الخطوات الميسِّرة لمهمته ما يلي:

أ- جمع الآيات التي تتناول موضوعا واحدا في نسق واحد متسلسل للوقوف على دقة المعنى[6]، لأنه قد يكون ثمّة للنص أكثر من وجه محتمل، بحيث يستخلص المفهوم العام الإجمالي للموضوع قبل التفصيل في دلالة الجملة ومكوناتها الصغرى.

ب-ترتيب آيات الموضوع الواحد حسب تاريخ نزولها لمعرفة مختلف الظروف والقرائن التي لابست نزولها تحرّيا للمعنى الدقيق.

ت-نظرة عامة على البيئة التي نزل بها هذا النص من أعراف ونظم اجتماعية وثقافية وسياسية.

ث-الاجتهاد في اِلتماس الدلالة اللغوية الأصلية التي تعطي حِسّ العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية، من خلال استقراء كل ما في القرآن من صيغ اللفظ، وتدبّر سياقها الخاص في الآية والسورة وسياقها العام في القرآن كله[7].

ج- الاحتكام إلى سياق النص في الكتاب المحكَم بالْتِزام ما يتحمّله نصاً وروحا مع عرض أقوال المفسرين وقواعد النحويين والبلاغيين على الكتاب المحكم وليس نعرضه هو عليها، فنقبل منها ما يقبله النص ونتفادى ما أُقحِم فيه "إذ القرآن هو الذروة العليا في نقاء أصالته وإعجاز بيانه، وهو النص الموثوق الذي لم تُشِبْه من أيّ سبيل أدنى شائبة ممّا تعرضتْ له رواية نصوص الفصحى من تحريف أو وضع، ثم إنه ليس بموضع ضرورة كالشواهد الشعرية ليجوز عليه ما يجوز عليها من تأويل"[8].

ح- دراسة أساليب القرآن واستعمالاته، للتفطن إلى نكته ومقاصده، واستخراج المعاني الخفيّة في النص.

خ- معرفة دلالة اللفظ من حيث المنطوق والمفهوم، والعموم والخصوص، والتقييد والإطلاق، والترادف والتضاد، وما إليها كما هو مقرر عند الأصوليين، لأن هذه المعاني تترتّب عيها أحكام فقهية، وتكاليف شرعية.

3- تحليل الخطاب القرآني في الطائفة الأولى من آيات سورة مريم

3-1) المعنى الإجمالي والغرض المقصود:

يعنى المفسر البياني بربط التفسير بغرضه الأسمى، المتمثل في هداية المتلقي إلى الحق فضلا عن إبراز الجانب الجمالي في الخطاب القرآني، ويستعمل في ذلك عدة مثيرات أسلوبية كالحوار، والنداء والاستفهام، قصد شدّ انتباه القارئ وإشراكه في التجاوب مع النص، كما تجري عادة التفسير الموضوعي على إعطاء فكرة عامة ومعنى إجمالي للسورة أو القصة القرآنية الواردة فيها حتى يتسنّى للمتلقي المتابعة الواعية، ويجبروه على إتمام النص بتفعيل عنصر التشويق، وهذا ما تركز عليه حقول اللسانيات التطبيقية في مجال تعليمية اللغات لاسيما في بعض موادها المتّسمة بالجفاف والصعوبة.

افتُتحت السورة بالحديث عن نبيّ الله زكريا عليه السلام، وكيف أن الله رزقه غلاما، وهو في أشدّ العتوّ والهرم من امرأة عاقر، ثم جاء الحديث عن قصة مريم البتول وكرامتها بخارق العادة بحملها من غير أب لنبي

الله عيسى عليه السلام، حيث أمْعن البيان القرآني في تفصيل هاتين القصّتين العظيمتين لما حَوَتا من أخبار غريبة.

2-3) براعة الاستهلال في الخطاب القرآني:

افتتحت السورة بالحروف المقطّعة ﴿**كهيعص**﴾ لتنبيه المتلقي وشدِّ انتباهه وتشويقه لما سيأتي، فكأنها من وسائل التعبير جاءت لتناسب حجم الخبر العظيم الذي سيلقى على مسامع الناس، وفيها إعجاز وتحدٍّ لهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

﴿**ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَه زَكَرِيَّا**﴾ (ذِكْر): خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا، أي: هذا ذكر رحمة ربك، "وإضافة رحمة الربّ جلّ وعلا إلى النبي إضافة تشريف وتكريم"[9]، وتسلية لقلبه، ولتكون تذكرة له ولأمته، والغرض من الخطاب الإفرادي إشعار المخاطب بأن الله يحدّثه بصورة إفرادية وفي هذا من التلطّف معه والاهتمام به ما فيه، والرحمة صفة من صفات الرحمن الرحيم، ومن آثارها العطاء والتوفيق السداد واستجابة الدعاء، وإزالة الهمّ والغمّ وتفريج الكربات، والإمداد بما يسرّ ويجبر الخاطر، ويصلح أحوال الدنيا والآخرة[10]، والرب هو الخالق والرازق والمدبّر، وفيه معنى التربية.

3-3) عناصر النظم في الخطاب القرآني:

إن التحليل البنيوي للغة ترك مجالا واسعا وفضاء خصبا لدراسة الخطاب من جميع مستوياتها، وقد جاء نظم هذا الكلام على "طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الإخبار، وأصل الكلام: (ذِكر عبدنا زكريا إذ نادى ربه فقال: رب الخ... فرحمة ربك)، فكان في تقديم الخبر بأن الله رحمه اهتمام بهذه المنقبة له، والإنباء بأن الله يرحم من اِلتجأ إليه"[11].

﴿**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا**﴾أي أذكر وقت دعائه واتّعظ بقصته وتدبّر ما فيها.

نادى: الأصل في النداء برفع الصوت والجهر به، وقد يقال لمجرد الصوت بل لكل ما يدل على شيء وإن لم يكن صوتا[12]، والمراد بالنداء هنا الدعاء، و(نداء خفيا) : أي دعا ربه خفية من الناس لأنه أدعى إلى الخشوع والإخلاص وأرجى للقبول، وحتى لا يُلام ويستغرب من دعائه الولد وقد بلغ من الكبر مبلغا لا يرجى حصوله الولد معه في العادة، وفي هذا توجيه تربوي إلى أدب الدعاء بأن يكون بتضرع وإخلاص وخفاء.

﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ولَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾جملة مبيّنة لطبيعة النداء.

الدعاء باسم الربوبية يناسب حال الداعي المفتقر إلى تربية مولاه، وإصلاحه ورعايته له، وقال:(ربِّ) بحذف ياء المتكلم وياء النداء إيجاز يدل على استشعار زكريا عليه السلام قرب ربه منه حال دعائه.

- وهَن: يهِنُ وهْنًا إذا ضعف، وإسناد الوهن إلى العظم لأنه عماد البدن وقوامه فإذا وهن وضعف العظم خارت جميع قوى البدن، وإفراد العظم وتعريفه بأل دلالة على الجنسية والشمولية، أي: هانت عظامي فردا فردا، ولو جاءت بصيغة الجمع لدلّت على وهن بعضها دون بعضها الآخر، كما أن التعريف بأن (العظم مني) أقوى دلالة من (عظمي).

والتأكيد بِ "إنّ" والجملة الاسمية "لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها"[13]، ولأنه انتظر الولد طويلا حتى هرم وبدأ الخوف يتسلّل إلى قلبه من انقطاع نسله، فكأنه بهذا الاعتراف يسترحم ربه ويستعطفه لإجابة دعائه، وفي سورة الأنبياء ﴿**وزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ**﴾[14].

3-4)توظيف الصورة الفنية لتكثيف المعنى:

يرى سيد قطب مكمن إعجاز القرآن وطريقته العامة في التعبير البياني يرجع إلى نظرية التصوير الفني الذي"هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبّر عن الصورة المحسّة المتخيلة وعن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحياة المتجددة"[15]، ففي قوله (واشتعل الرأس شيبا): شبّه الشيب في بياضه وإنارته بلهب النار وانتشاره بسرعة في الشعر ثم أخرجه مخرج الاستعارة، حيث استعير فعل (اشتعل) للدلالة على فعل (انتشر) "تصويرا لصورة يتخيّلها الناظر إلى الرأس الذي أخذ الشيب ينتشر فيه بسرعة، كما ينتشر لهب النار في الهشيم حتى استوعب كل أجزائه"[16]، وأصل النظم: (واشتعل الشيب في شعر الرأس).

- (ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا): أي لم أكن بدعائي إياك خائبا ولا محروما بل عوّدتني الإجابة كلما دعوتك طوال حياتي.

والملاحظ ورود كلمة (ربِّ) معترضة بين قوله (دعائك) و(شقيا) المتلازمتين قصد التحبّب بذكر المحبوب والتودد إليه والتلذذ بذكره ولتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التوسّل.

ومن تحليل هذا الخطاب القرآني نستلْهم أدب الدعاء وأدب الحياة مع الله بأن نمهّد للدعاء بإظهار المسكنة والضعف والبراءة من الحول والقوة، وأن نثني على الله بما هو أهل له، وأن نتوسّل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى المناسبة لنوع المطلوب، فحريّ بمن كان هذا حاله أن يستجيب الله له ولاسيما إذا كان مضطرًّا في شدة مِن أمره لقوله تعالى: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذا دَعَاهُ ويَكْشِفُ السُوءَ**﴾[17].

﴿**وإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فهَبْ لِي مِن لَدُنْكَ وَلِيًّا**﴾

الموالي: هم عُصبة الرجل ومن يلونه في النسب، (من ورائي) أي: من بعدي، والحاصل أنه يقصد بعد موته لِما تقدّم من ذكر وصف حاله بوهن العظم والشيب والشيخوخة فكأنه أشرف على الموت.

ويبدو أنه عليه السلام لمْ ير أحدا من ذوي قرابته وأتباعه يصلح لتولّي القيادة الدينية، فخاف ضياع الدين وتغيير الملة، والخوف يكون من المحذور المقبل (من ورائي) فإذا حصل ومضى يتحوَّل إلى حزن، إلا أن الجار والمجرور هنا متعلق بمحذوف تقديره (فعل أو عمل) أيْ (خفت فعل الموالي من ورائي)[18] وليس متعلق بـ (خفت) لأن الخوف حاصل قبل الموت.

3-5) دقة الوصف في الخطاب القرآني:

في قوله:(وكانت امرأتي عاقرا) عبّر بالفعل الماضي (كانت) ولم يكتفِ بِقول: (وامرأتي عاقر): للدلالة على أنه مضى من عمرها زمن طويل ولم تنجب وسيما في ريعان شبابها فالعقر متمكن منها "وهذا التعبير يُشعر بأن مستقبل أمرها هو بيد الله فإن شاء أصلحها فحملت"[19] وإن شاء تركها على حالها.

-(فهب لي من لدنك وليا): رغم توافر العوارض والموانع من حصول الولد لزكريا عليه السلام كونه قد بلغ من الكبر العتي وامرأته عاقر في الأصل وقد تجاوزت السن التي تنجب فيها النساء عادة غير أن الداعي في قلبه قويّ كونه نبي يثق بموعود ربه، فقال: (فهب لي)، والهبة: العطيّة الخالية من الأعواض والأغراض.

(من لدنك): "لدن: ظرف زماني ومكاني غير متمكّن بمنزلة (عند) إلا أنه أقرب من عند وأخص منه"[20]، (وليا): أي ولدا يتولّى الأمور الدينية من بعدي كما يؤيده قوله تعالى في آل عمران: ﴿**قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً** ﴾[21] ولم يطلب هذا الولد لمجرد المتاع الدنيوي.

والمعنى أنه طلب الولد عن طريق معجزة من الله خارقة للعادة لأنه يعلم يقينا من حاله وحال زوجه عدم الإنجاب بالأسباب الطبيعية مطلقا "فلمّا قال: (من عندك) دلّ على أنه سأل وليًّا غير جارٍ أمره على المعتاد من إيجاد الأولاد لانعدام الأسباب المعتادة فتكون هبته كرامة له"[22] لذا قدّم الجار والمجرور (من لدنك) على المطلوب (وليا) وذلك لإظهار كمال الاعتناء والإلحاح على كون الهبة المطلوبة تجيء على ذلك الوجه البديع بعناية الله الخاصة، وفي تأخير المطلوب من التشويق ومناسبة السياق ما لا يخفى.

﴿ **يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾

المراد بالميراث النبوّة والعلم الشرعي والحكمة، قال الإمام البخاري: "وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ورّثوا العلم من أخذه أخذ بحظ وافر"[23].

- يرثني: أي يأخذ مني العلم الشرعي والحكمة والصلاح والتربية، ويرث من آل يعقوب، وجاء بمن التبعيضية هنا لأن ميراث آل يعقوب لا يصله كله لتباعد الزمن بينه وبينهم، فيذهب منه بعضه أو لأن آل يعقوب ليسوا كلهم أنباء فلا يرث إلا من بعضهم.

- (واجعله ربِّ رضيا) رضيّ: على وزن فعيل، تأتي بمعنى (اسم الفاعل) مع المبالغة أي: راضيا عنك فيما تقضيه من أقدارك الكونية والشرعية دون جزع أو شكوى، والرضا أعلى مراتب الصبر، وتأتي بمعنى (اسم

المفعول) مع المبالغة أي: مرضيا عنه من ربه ومن أتباعه في أعماله وأخلاقه وأموره كلها، فيكون بذلك قدوة حسنة للناس إذ ليس كل من ورث علما عمل بمقتضاه وانتفع به.

﴿ **يَا زَكَرِيّا إنّا نبشّرك بغلام اسْمُهُ يَحْيَا لم نجعلْ له منْ قَبلُ سميّا**﴾

يحلّ الفرج ببيت النبوة وتأتي البشرى وتتنزل عليه من رحمات الله التي وسعت كل شيء.

3-6)من روائع النظم البياني في الخطاب القرآني:

إن مهمة المحلل الخطاب لا تقتصر على رصد المتغيرات على مستوى الجملة، وإنما يتفطن للقيمة التعبيرية الموجودة على مستوى النص بأكمله، ولعل الجدير بالاهتمام في هذا الصدد الإشادة بروائع النظم البياني الذي تفرّد به القرآن، الماثل في "تقديم النص اقتطاعًا من الحدث الماضي أو من الحدث الذي سيحدث في المستقبل لإحضار الصورة نفسها كأنّ الحدث يجري مع الخطاب البياني"[24] فكأنك ترى مشاهد القصة شاخصة أمامك وتعيش أحداثها بشعورك وأحاسيسك فتأْسِر لُبّك وتشدّ ذهنك، وخاصة إذا صيغت بأسلوب الحوار وحُبِكت أدوارها حبكًا يضفي على أجوائها مزيدا من الجمال القصصي والتشويق.

نادى الله سبحانه وتعالى عبده زكريا بحرف النداء (يا) والتنصيص على اسمه لإثارة انتباهه والتأكيد على أنه قد بلغ من التشريف والرفعة والاهتمام بشأنه ما تطمئن به نفسه وتقرّ عينه.

- (إنّا نبشّرك بغلام): جملة مؤكدة بمؤكدين (إن) والصيغة الاسمية لأن موضوع الخبر مستغرب في عادة الناس غير جار حسب السنن الكونية، ولذا اقتضى النظم البياني المخاطبة باستعمال ضمير العظمة الذي لا يتعاظم معه شيء، وبشّره (بغلام): ولم يقل: (ولد): لأن الولد يحتمل الذكر والأنثى، فكان التبشير بالغلام بمثابة بشارة مركبة، أولا بأن المبشَّر به ذكر يصلح للإمامة الدينية وخدمة البيت المقدّس، ثانيا بأنه يكبر حتى يصير غلاما تقرّ به عين أبيه.

(لم نجعل له من قبل سميّا): أي "مشاركا له في الاسم والصفة"[25] مثاله ما جاء في قوله: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾[26]، أي هل تعلم له شريكًا أو شبيها في أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

3-7)السياق سيد الموقف:

عُرِّض عن وصف المبَشَّر به في هذا المقام، وجاء وصفه في آل عمران مفصّلا لِما أُجمل في قوله تعالى: ﴿**فنَادَتْهُ المَلائِكَةُ وهُو قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وسَيِّدًا وحَصُورًا ونَبِيًّا مِنَ الصَالِحِينَ** ﴾[27].

وتحسنُ الإشارة هنا إلى مجيء البشارة على لسان الملائكة بخلاف سورة مريم لأن "القصة الواحدة قد يكون فيها أكثر من موطن عبرة وأكثر من جانب استشهاد ، فلا غرو إذن أن تُذكر في المناسبة التي يرادُ الاستشهاد لها أو الموطن الذي يراد الاتعاظ به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلّط الضوء عليه"[28]

فسبب مجيء البشارة على لسان الملائكة في سورة آل عمران كما يبدو بالنظر في البيان هو لملائمة الحديث عن النبوة وعن اصطفاء الله لها من صفوة خلقه، ووجه المناسبة كون الملائكة واسطة لهذه النبوة، أما في مريم فالحديث عن رحمة الله الواصلة إلى عباده اقتضى مجيء البشارة بالطريق المباشر دون ذكر الواسطة.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وكَنَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا﴾

تعجّب من أن يكون له غلام من امرأة عاقر وهو شيخ كبير، (قال ربِّ): نادى ربه بالذات رغم توسّط الملَك بينهما للمبالغة في التضرع والمناجاة والإخلاص إلى ربه.

(أنّى): بمعنى (كيف) أو (من أين) وهو استفهام يُستعمل للتعجّب والاستغراب، ولم يقل ذلك عن شك في قدرة الله، إنما على وجه الاستخبار وليطمئن قلبه كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ المَوْتَى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى ولَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾[29].

-العتيّ: مصدر عتا العود إذا يبس "وعتا الشيخ عُتِيا وعَتيا بفتح العين: أسنّ وكبُر وولّى"[30].

(وقد بلغت من الكبر عتيا): شبّه عظامه بالأعواد اليابسة عن طريق الاستعارة، حتى كأنه أصاب من الكبر منتهاه، وجعل نفسه هنا بالغًا الكبر وفي آل عمران:﴿**وقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ**﴾[31] لأن البلوغ لما كان مجازا في حصول الوصف صحّ أن يسند إلى الوصف وإلى الموصوف[32].

﴿قالَ كَذَلِكَ قالَ رَبُّكَ هُو عَلَيَّ هَيِّنٌ وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ولَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

إجابة الملَك على طريقة المحاورة عن تعجبه.

(كذلك): تفيد تقرير التعجّب الذي يثير في السامع ترقّب الكشف عن سرّ ذلك التعجّب وإبطاله فيأتي البيان القرآني الذي لا يتأخّر عند الحاجة إليه، ليزيل تماما دواعي العجب بقوله (هو عليَّ هين) أي سهل حصوله.

3-8)الاحتمالات النحوية وأثرها في تحديد الدلالة:

إن المتأمل في كتب التفاسير والإعجاز القرآني خاصة ليجد بوضوح تلك العلاقة الطبيعية القائمة بين العلامة النحوية والمعنى، ومن المؤكد أن كل وجه نحوي يتميز بخصائص دلالية عن غيره، وهذا المنحى الذي ينسجم مع النص القرآني نهج عليه معظم اللغويين والمفسرين والأصوليين القدامى، خاصة وأن النص القرآني تفنى الأعمار ولا تنقضي أسراره وعجائبه[33].

في الآية السابقة اِلتفات من الغيبة (قال ربك) إلى التكلّم (هو علي هيّن)، ومقتضى الظاهر: (هو عليه هين)، ليشعر أنه لا أحد يقدر على أمور الخلق والتقدير بشيء إلا هو، ولهذا قال (هو عليَّ) لتوقف الأمر عليه وحده، وقدّمه (الجار والمجرور) على الخبر (هيّن) لإفادة الحصر والقصر عليه لا على غيره.

(لم تك) شيئا: بحذف نون (تكن) ليشعر أنه من كان معدوما في الواقع يحسن إيجاز الحديث عنه، بالاقتطاع من لفظه دلالة على الاقتطاع من زمن الحدث.

فلما زال عجبه تاقت نفسه إلى رؤية البشرى واستعجل حصولها ﴿**وكانَ الإنسَانُ عَجُولًا**﴾[34] فطلب من ربه علامة تدل على قرب موعد البشرى، وحتى يستعدّ لها ﴿**قالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا**﴾.

وفي حذف متعلق (آية) دلالة على استعجاله وتعريض منه بطلب المبادرة بتنفيذ المبشَّر به.

سَويّا: فعيل بمعنى مفعول يحتمل أن تكون وصفًا لليالي، فيكون المعنى ثلاث ليال كاملة، ويحتمل أن تكون حالًا من ضمير المخاطب أن تكون سليما من غير عاهة ولا مرض.

﴿**فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةَ وعَشِيًّا**﴾.

تعدية (خرج) بعلى دلالة على تضمينه معنى (طلع) للتشريف والتكريم لمقام زكريا، والحال كونه في المحراب يصلي ويذكر ربه.

فأوحى: أشار أو أوْمَأ، ويشهد له قوله في آل عمران (إلا رمزا)، وكونه خرج من المحراب لمّا جاءته البشرى يُنبئ عن عِظم العبودية لله التي كان عليها الأنبياء، وبها نالوا رحماته وبلغوا أعلى المقامات في الدنيا والآخرة وفي هذا بشرى وذكرى للعابدين.

وقد أَمَر قومه بالتسبيح بكرة وعشيا تناسبا مع الأيام والليالي الثلاث شكرا لله تعالى على هذه المنّة العظيمة العائدة عليهم جميعا وامتثالا لأمره تعالى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[35].

3-9)بلاغة الحذف:

من بلاغة القرآن الحذف الذي تُطوى به الأحداث والأزمنة طيًّا، وتُسلَّط الأضواء على المواقف والأحداث المهمّة والمناسبة للسياق، حيث هنا تمّ حذف الحديث عن ميلاد يحيى عليه السلام ونشأته وغيرها من مراحل الطفولة، وركّز البيان القرآني على مرحلة التكليف، وكأنّ هذا المسلك يشير إلى المسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد[36] الذي استعجله زكريا عليه السلام.

﴿ **يا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا**﴾.

أمر تكليفي يتضمّن معنى الحرص والاجتهاد في فهم التوراة والعمل بمقتضاها، ودعوة الناس إليها والصدع بالحق والثبّات عليه.

- (وآتيناه الحكم صبيا): الحكم بمعنى الحكمة والفهم وسداد الرأي، وفرق بين (آتى)، و(أعطى) التي تفيد التملّك، والأمر هنا يستدعي التبليغ بما كُلِّف به وليس الاقتصار به عن نفسه.

وتعريف (الحكم) بـ (أل) الاستغراقية ليشمل كل المعاني المذكورة وغيرها ممّا يدور في فلكها، وكون إتيانه الحكم في حال الصبى فهذه تنشئة وعناية إلهية خاصة، وكرامة لبيت النبوّة الذي نشأ فيه ليُمهَّد لأمر عظيم.

﴿وحَنَانًا مِن لَدُنَّا وزَكَاةً وكانَ تَقِيًّا﴾.

قوله: (من لدنا) أخصّ من قوله: (منّا).

الحنان: الرحمة والشفقة ورقّة القلب، والزكاة: تعني الطهارة والنّماء والبَركة، والتنوين في الوصف (حنانًا) و(زكاةً) للتفخيم، فهي أبلغ في الوصف من قول (رحِمتُه وزَكَّيْته).

(وكان تقيا): وصفه بالتقوى مقرونا بالفعل (كان) لتمكُّنه من الوصف وثباته عليه، وعطف التقوى على صفة الحنان إشارة إلى ضبط هذه الصفة بميزان التقوى، لأن من الرحمة والحنان ما يخرج صاحبه عن حدّ الشرع.

3-10)براعة الاختتام:

وتكمن في حسن إكمال المشهد وبيان ما تؤول إليه عاقبة المحسنين، فتنطبع تلك الصورة المشرقة وذلك الحضور الذهني في نفسية المتلقي، حيث اختتمت القصة بحصول البشرى وتحقق الوعد المنتظر بالخلافة الدينية في هذا الغلام المبشَّر به، ثم إن أمره سلام في الدنيا والآخرة، فقال: **﴿وبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ولَمْ يَكُن جَبّارًا عَصِيًّا﴾.**

برًّا: صفة مشبّهة وهي أبلغ من "بارًّا" اسم الفاعل، دلالة على كثرة برّ الوالدين، فالبرّ صفة ثابتة جِبليّة فيه رحمة من الله بوالديْه اللذيْن قد بلغا من الكبر ما أحوجهما إلى برّه، و(لم يكن جبّارا عصيّا): تأكيد لصفة البر والإحسان والليونة من باب إثبات الصفات ونفي ضدّها عن طريق المقابلة، فتزيد المعنى قوة واللفظ حسنا.

﴿وسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

السلام تحية ربّانية مباركة لهذا النبيّ الذي جمع الخصال الحميدة والأخلاق الكريمة، خصوصا في المواطن التي "يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى"[37]،فيشعره بالأمن والطمأنينة وسكينة النفس.

خاتمة:

يمكن إجمال أهم النتائج المتوصّل إليها كالآتي:

اعتنى علماء التفسير في تحليل الخطاب القرآني بكل جوانبه اللسانية وغير اللسانية، فبحثوا دلالة الألفاظ ومتعلقاتها في الجملة، وركّزوا على جانب السياق ولم ينظروا إلى الجملة بمعزل عن النص ولا النص بمعزل

عن سياقه العام- كما ادّعى بعض الناقمين من البلاغة العربية- ولعل خير دليل على هذه الحظوة اهتمامهم بأسباب نزول القرآن والأحداث الذي رافقته، لأنها قرائن تدعم اتجاها معيّنا في حال التباس المعنى.

من خلال التحليل البياني للمقطع المدروس من السورة يتبيّن أن الخطاب القرآني ينماز عن غيره بما يلي:

1ـ دقّة اختيار الألفاظ واتّساع معانيها وقوة تأثيرها.

2ـ المناسبة الدقيقة لمواطن التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير لما يستدعيه المقام والسياق العام.

3ـ القدرة على جمع المتباينات كالجمع بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة، وبين العدل والرحمة.

4ـ توفِّر الصورة الفنية طاقات تعبيرية مذهلة لذا آثرها الخطاب القرآني للإبلاغ عن المعاني المقصودة، ووصف مختلف المشاهد الواردة في القصة، فمنحتها الاستمرارية والتجدد حتى كأنك تراها رأي العين، وتثير كثافة معنوية في نفس المتلقي فما يجد إلا أن يقع أسير سحرها.

5- دوام العلاقة الطبيعية القائمة بين الوظيفة النحوية والدلالة، ومن المؤكد أن كل وجه نحوي يتميز بخصائص دلالية، وهنا تتبيّن عبقرية المفسّر في الترجيح بين المعاني في حال تعدّدها.

هوامش البحث:

1 البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المطبعة العثمانية، د ط، 1305هـ، ج1، ص: 23.

2 فاضل صالح السامرائي، على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، الشارقة، د ط، 2002، ج1، ص7.

3 ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، المدينة المنوّرة، د ط، د ت، ج6، ص2293 وما بعدها .

4 ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، ط2، 1947، ص23، 24.

5 محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة، الدوحة، د ط، 1985، ص92.

6 ينظر: أمين الخولي ،مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ،ص: 305 .

7 ينظر: المرجع نفسه،ص:306.

8 عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن، دار المعارف، مصر، ط3، 1990، ج1، ص11.

9 المرجع نفسه، مج4، ص415.

10 ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، معارج التفكّر ودقائق التدبر، دار القلم، دمشق، ط1، 2002، مج7، ص377.

11 الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984،ج16، ص62.

12 ينظر: شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، دت، مج16، ص59.

13المرجع نفسه، ج16، ص60.

14 سورة الأنبياء، الآية 89.

15سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق القاهرة، ط3، 1983، ص121.

16 عبد الرحمان الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، مج7، ص383.

17 سورة النمل: الآية 62.

18 ينظر: شهاب الدين الألوسي، روح المعاني، ج16، ص61.

19 عبد الرحمن حبنكة الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، مج7، ص386.

20المرجع نفسه، مج7، ص386.

21 سورة آل عمران، الآية 38.

22 ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، ص67.

23 البخاري أبو عبد الله محمد، صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، ط2، 1999، باب العلم قبل القول والعمل، ص29.

24 عبد الرحمن الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، مج7، ص387.

25 مجمع اللغة العربية بالقاهرة، معجم ألفاظ القرآن الكريم، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، القاهرة، ط2، 1989، ص60.

26 سورة مريم، الآية 39.

27 سورة آل عمران، الآية 39.

28 فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمّار، عمان، ط4، 2002، ص283.

29 سورة البقرة، الآية: 260

30ابن منظور الإفريقي جمال الدين محمد بن مكرّم ، لسان العرب، تح: عبد الله الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ط5، د ت، ص: 2804، مادة (عتا)

31 سورة آل عمران، الآية: 40.

32 ينظر: شهاب الدين الألوسي، روح المعاني، ج16، ص:67.

33 ينظر: هادي نهر، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، دار الأمل، الأردن، ط 1، 2007، ص119.

34 سورة الإسراء، الآية: 11.

35 سورة إبراهيم، الآية 7.

36 ينظر: شهاب الدين الألوسي، روح المعاني، ج15، ص72.

37 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2006، ج13، ص426.